ويقال أن تحريضه هذا ترك أثره النفسى فى مسلك سعيد ، حتى هاجم الصغد ، وانتصر عليهم ، واقتحم مدينتهم ، وحقق النصر لجيشه .

وتظل هذه الرواية والشعر معها شاهدَيْن على امتداد فروسية مالك التى لم تتزعزع فى نفسه ، إلى أن تعددت الروايات ، واختلفت الأخبار حول وفاته ، فمنها ما انتهى إلى أنه مرض فى مرو بخراسان ، قبل رحيل سعيد ، وكان هذا مرض الموت ، ومنها ما ذهب إلى أنه مات لديغا فى طريق العودة إذ أراد مرة أن يلبس خفه فلدغته حية كانت مختبئة فى الخف فمات بسبب من لدغتها[1] .

ومنها أيضا ما يصور موته بسبب مرض ألمَّ به بعد تجاوزه مدينة مرو ، فاضطر سعيد أن يخلف عليه رجلَيْن لتمريضه ، وألقيام بأمره رجاء أن يُشفى ، فيلحقاه بالركب ، لكن الأجل وافاه فدفناه هناك[1] ومن هذه الأخبار أيضا ما يحكى أنه مات شهيدا فى إحدى معاركه فى صفوف الجيش الإسلامى حيث أصيب بطعنة قاتلة[2] .

وأيا كانت صورة موته فقد أقدم الرجل على رثاء نفسه بعيدا عن وطنه ، وكأنه أحس أنه سيموت غريبا لا محالة ، فراح يعرض موقفه النفسى على هذه الدرجة من التكامل ، ابتداء من تصوير شوقه وحنينه إلى ذويه ووطنه ، وعرض سبب فراقه لهم ، ليقف عند مشاهد التذكر والبكاء ، ومعاناة الواقع الأليم في صيغ من المناجاة الحزينة ، وبين هذه اللوحات يفسح لنفسه مجالا لتأمل مكانة الذات من زاوية الفخر بها ، والاعتزاز بمكانتها عوداً إلى ماضى الذكريات ، ولكن الصور – فى مجملها – تكاد تذهب فى تصوير أسفه على موته فى غربته ، إذْ لَمْ يجد مجالا للتعزي إلا بالفرار المؤقت إلى عالم تلك الذكريات من ناحية ؛ وما صنعه من صيغ شعرية أعدها لتكون رسالته الأخيرة التى يبعث بها إلى أمه وذويه من ناحية أخرى .

وهو يستهل قصيدته على لغة التمنى التى تعكس تجربة الحنين بدايةً كما كان يعيشها ويعانى مرارتها ،ولذا يبنى صورته على أساس من مقومات المواطنة التى استحسن فيها ترديد كلمة ( الغضا ) الدالة على أشجار صحراء وطنه ، فراح يكررها ست مرات فى الأبيات الثلاثة الأولى من القصيدة ، وإلى جانب الغضا لا نكاد نرى لديه تركيزا فى هذه الأبيات إلا على تكرار لغة التمنى أيضا (ليت شعرى ، ليت الغضا ، وليت الغضا ، لو دنا الغضا )

(١) الطبرى ٦/ ١٧١ . (٢) الأغانى ٢٢/ ٢٩٧ .